الباب السابع عشر

في الآثارِ الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن مالك بن مغول، عن السفر قال: مرض أبو بكر رضي الله عنه فعادوه فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: قال إني فعال لما أريد.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وجدنا خير عيشنا بالصبر وقال أيضاً: أفضل عيش أدركناه بالصبر ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس بار الجسم ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له. وقال: الصبر مطية لا تكبو.

وقال الحسن: الصبر كنز من كنوز الخير لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده وقال عمر بن عبد العزيز: ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه. وقال سليمان بن القاسم: كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠) قال: كالماء المنهمر.

وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت ينظر فيها وفيها: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت وكان محمد بن شبرمة اذا نزل به بلاء قال: سحابة صيف ثم تنقشع. وقال سفيان بن عُيينة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

لَمَّا صَبَرُوا﴾ (السجدة: ٢٤) لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوساً. وقيل للأحنف ابن قيس: ما الحلم؟ قال: أنْ تصبر على ما تكره قليلاً. وقال وهب: مكتوب في الحكمة: «قصر السفه النصب وقصر الحلم الراحة وقصر الصبر الظفر» ـ قصر الشيء وقصاراه غايته وثمرته ـ وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد وكان من أحسن الناس وجهاً فدخل يوماً على الوليد في ثياب وشي وله غديرتان وهو يضرب بيده، فقال الوليد: هكذا تكون فتيان قريش فعانه فخرج من عنده متوسناً فوقع في اصطبل الدواب فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات، ثم إن الآكلة وقعت في رجل عروة، فبعث إليه الوليد الأطباء، فقالوا: إن لم تقطعها سَرَت إلى باقي الجسد فتهلك، فعزم على قطعها فنشروها بالمنشار فلما صار المنشار إلى القصبة وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر فأخذها وجعل يقلبها في يده، ثم قال: أما والذي حملني عليك أن ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى مالا يرضي الله ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه أهل بيته وأصدقاؤه يعزونه فجعل يقول: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ (الكهف: ٦٢). ولم يزد عليه، ثم قال: لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكبة أو حاسد لنعمة فمضى إلى قصر بالعقيق فأقام هنالك فلما دخل قصره قال له عيسى بن طلحة: لا أبا لشانئيك أرني هذه المصيبة التي نعزيك فيها فكشف له عن ركبته، فقال له عيسى: أما والله ما كنا نعدك للصراع قد أبقى الله أكثرك عقلك ولسانك وبصرك ويداك واحدى رجليك، فقال له عيسى: ما عزاني أحد مثل ما عزيتني به ولما أرادوا قطع رجله قالوا له: لو سقيناك شيئاً كي لا تشعر بالوجع قال: إنما ابتلاني ليرى أفأعارض أمره وسئل ابنه هشام كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ قال: كان يمسح عليها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا سلام قال: سمعت قتادة يقول: قال لقمان وسأله رجل أي شيء خيراً قال: صبر لا يتبعه أذى قال: فأي الناس خيراً؟ قال: الذي يرضى بما أوتي قال: فأي الناس أعلم قال: الذي يأخذ

من علم الناس إلى علمه قيل: فما خير الكنز من المال أو من العلم قال: سبحان الله بل المؤمن العالم الذي إن ابتغى عنده خيراً وجد وإن لم يكن عنده كف نفسه ويحسب المؤمن أن يكف نفسه وقال حسان بن أبي جبلة: (من بث فلم يصبر) ورواه ابن أبي الدنيا مرفوعاً إلى النبي ﷺ - وان صح - فمعناه: الى المخلوق لا من بث إلى الله وقال حسان بن أبي جبلة أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ٨٣) قال: لا شكوى فيه ورفعه ابن أبي الدنيا أيضاً وقال مجاهد: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ في غير جزع وقال عمرو بن قيس ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: الرضا بالمصيبة والتسليم وقال بعض السلف: فصبر جميل لا شكوى فيه وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٤) قال: كظم على حزن فلم يقل إلا خيراً وقال يحيى بن المختار عن الحسن: «**الكظيم: الصبور**» وقال همام عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾. أي كمد: أي كمد الحزن وقال الحسن: ما جرعتين أحب إلى الله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر وجرعة غيظ ردها بحلم.

وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار أن سعيد بن جبير قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر - فقوله: «**اعتراف العبد لله بما أصاب منه**». كأنه تفسير لقوله: «**إنا لله**» فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد وقوله: «**راجياً به ما عند الله**» كأنه تفسير لقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) أي نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة وقوله: «**وقد يجزع الرجل وهو يتجلد**». أي ليس الصبر بالتجلد وانما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ورد اللسان عن الشكوى فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر.

وقال يونس بن زيد: سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثل قبل أن تصيبه وقال قيس بن الحجاج في

قول الله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ (المعارج: ٥). قال: أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو وكان شمر إذا عزى مصاباً قال: اصبر لما حكم ربك وقال أبو عقيل: رأيت سالم بن عبد الله بن عمر بيده سوط وعليه إزار في موت واقد بن عبدالله بن عمر لا يسمع صارخة ينالها بالسوط إلا ضربها.

قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن جعفر بن مهران قال: قالتِ امرأةٌ من قريش:

أما والذي لا خُلْدَ إلاّ لوجهِهِ ... ومَن ليس في العزّ المنيعِ له كُفْوُ
لئِنْ كان بدءُ الصَّبْرِ مراً مذاقه ... لقد يُجتنى من غبّهِ الثمرُ الحُلْوُ

قال وأنشدني عمرو بن بكير:

صبرتُ، فكان الصبرُ خيرَ مغبةٍ ... وهل جزع يُجدي علي فأجزعُ؟
ملكت دموع العين حتى رددتها ... إلى ناظري، فالعين في القلب تدمعُ

قال وأنشدني أحمد بن موسى الثقفي:

نُبِّئتُ خولة أمس قد جزعتْ ... من أنْ تنوبَ نوائبُ الدهرِ
لا تجزعي، يا خولةُ، واصبري ... إن الكرامَ بنوا على الصبْرِ

قال وحدثني عبد الله بن محمد بن إسماعيل التيمي أن رجلاً عزى رجلاً في ابنه فقال: إنما يستوجب على الله وعده من صبر له بحقه فلا تجمع إلى ما أصبت به من المصيبة الفجيعة بالأجر فإنها أعظم المصيبتين عليك وأنكى الرزيتين لك والسلام.

وعزى ابن أبي السماك رجلاً فقال: عليك بالصبر فبه يعمل من احتسب وإليه يصبر من جزع وقال عمر بن عبد العزيز: أما الرضا فمنزلة عزيزة ـ أو منيعة ـ ولكن جعل الله في الصبر معولاً حسناً ولما مات عبد الملك ابنه صلى عليه ثم قال: رحمك الله لقد كنت لي وزيراً وكنت لي معيناً قال: والناس يبكون وما يقطر من عينيه قطرة وأصيب مطرف بن عبد الله في ابن له فأتاه قوم يعزونه فخرج إليهم أحسن ما كان بشرًا، ثم قال: اني لأستحي من الله أن أتضعضع لمصيبة

وقال عمرو بن دينار: قال عبيد بن عمير: ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ولكن الجزع القول السيّئ والظن السيّئ.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني الحسين بن عبد العزيز الحروزي قد مات ابن لي نفيس فقلت لأمه: اتقي الله واحتسبيه واصبري. فقالت: مصيبتي أعظم من أن أفسدها بالجزع.

قال ابن أبي الدنيا: وأخبرني عمر بن بكير عن شيخ من قريش قال: مات الحسن بن الحصين أبو عبيد الله بن الحسن وعبيد الله يومئذ قاض على البصرة وأميراً فكثر من يعزيه فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره فأجمعوا أنه إذا ترك شيئاً مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال خالد بن أبي عثمان القرشي: كان سعيد بن جبير يعزيني في ابني فرآني أطوف بالبيت متقنعاً فكشف القناع عن رأسي وقال: الاستكانة من الجزع.

فصل وضع المصاب ثوباً ليُعرف

وأما قول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغيرهم: لا بأس أن يجعل المصاب على رأسه ثوباً يعرف به قالوا: لأن التعزية سنة وفي ذلك تيسير لمعرفته حتى يعزيه ففيه نظر وأنكره شيخنا، ولا ريب أن السلف لم يكونوا يفعلون شيئاً من ذلك لا نقل هذا عن أحد من الصحابة والتابعين والآثار المتقدمة كلها صريحة في رد هذا القول وقد أنكر إسحاق بن راهويه أن يترك لبس ما عادته لبسه وقال: هو من الجزع.

وبالجملة فعادتهم أنهم لم يكونوا يغيروا شيئاً من زيهم قبل المصيبة ولا يتركوا ما كانوا يعملونه فهذا كله مناف للصبر والله سبحانه أعلم.

□